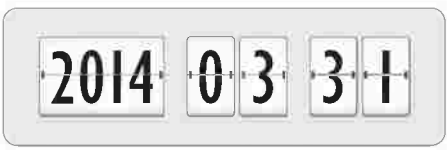

لسوء الطالع حين تكون الأمور سائرة على ما يرام يكون احتمال وقوع الكارثة أقوى؛ ففي تشرين الأول/أكتوبر عام 2010م أطلقت منظمة اتصالات دولية تتولى نشر معلومات وأخبارًا سرية في تسريبات تدعى ويكيليكس، حزمة مؤلفة من (400) ألف وثيقة عن العراق وأفغانستان تحت عنوان سجل الحرب العراقية، وبين أشياء أخرى كشفت التسريبات عن مدى الإخفاقات في أفغانستان، وعن أعداد أكبر من القتلى المدنيين مقارنة بالأعداد المعلنة من قبل، أرادت المجموعة فضح الدسائس والمكائد داخل الحكومة الأفغانية، ووعدت بأن تكون وزارة الخارجية الهدف الثاني. من عادتي أن أنام جيدًا، إلا أنني منذ شهر جافاني النوم، جراء توجسي مما سيُكشف.

وكما بات معلومًا فإن ويكيليكس أقدمت أواخر تشرين الثاني/نوفمبر على إطلاق جملة من برقيات الخارجية السرية، نُشرت مختارات منها لاحقًا من قبل عدد من صحف العالم الرئيسة، كانت المنظمة قد وضعت يدها على (250) ألفًا من الوثائق الرسمية، وراحت تتعاون مع وسائل إعلام دولية لنشر كنوزها على الصفحات الأولى في طول الكوكب وعرضه، خططت ويكيليكس لإماطة اللثام عن التسريبات في عطلة عيد الشكر الأسبوعية.

كنت في تشاباكوا مع عائلتي للاحتفال بعيد الشكر، وطلبت تشلسي ألا أرد على أي اتصال هاتفي أيام العطلة، تعين علي أن أوافق بصرف النظر عن الأزمة، غير أنني عوَّضت عن ذلك يوم الجمعة؛ بقيت على الهاتف الوقت كله، كنت أمشي والسماعة على أذني اليمنى مواصلة الاتصال برسميين في ألمانيا، وبريطانيا العظمى، وفرنسا، والمملكة العربية السعودية، والإمارات العربية المتحدة، والصين، وأفغانستان، وكندا، منبهة إياهم حول التسريبات القادمة وملتمسة صفحهم، تعين علي تكرار الأشياء ذاتها مرة بعد أخرى حتى كادت تخرج من أذني. لم نكن نعرف بعد ماهية المواد السرية التي سيُكشف عنها بالنسبة إلى كل بلد، إضافة إلى تأثر قادة العالم سلبًا، كنت أخشى من تعرض موارد سرية للانكشاف، ولعل ما هو أسوأ أنه بات ضروريًّا إبلاغ قادة معينين بأن على أسمائهم أن تشطب من الوثائق، وإلا فإن حياتهم ستكون في خطر، تحملت مسؤوليتي بكل جدية، وآمنت بأن أفضل طرق التخفيف من الضربة هي المبادرة إلى توظيف لباقتي والتماس تفهمهم.

تسريب البرقيات تمخض عن أزمة في وزارة الخارجية، مع تعرض بيانات وتصريحات صريحة وفظة لدبلوماسيين أمريكيين وأجانب للانكشاف على الملأ، توليت قيادة عملية التحكم في الأضرار عن الولايات المتحدة في الخارج، وسعيت لتعزيز معنويات موظفي السلك الخارجي المخضوضة. بعض القادة الأجانب سلموا باللغة الصريحة للبرقيات؛ فوزير الخارجية الكندي لورنس كانون مثلًا، طلب إليَّ ألا أبالي؛ لأن ما كان الكنديون قد قالوه عني كان أسوأ بكثير مما كنا نحن قد قلناه عنهم.

انتقدت التسريبات بقسوة مطلقة كلامًا من قبيل «لنكن واضحتين بشأن هذه التسريبات: ليست مجرد هجوم على مصالح السياسة الخارجية الأمريكية. إنها عدوان على الأسرة الدولية — على جملة محادثاتها، وتحالفاتها، ومفاوضاتها التي تحمي الأمن الكوكبي». على الفور بادرت وزارة الخارجية إلى تشكيل

(غرفة عمليات)؛ لمعالجة آثار عمليات الكشف، واتخاذ تدابير من شأنها أن توفر إمكانية الحيلولة دون حدوث تسريبات مماثلة في المستقبل.

فضائح الويكيليكس أحدثت هلعًا في العالم كله، إذ إن الجميع، بمن فيهم أنا، راحوا يسعون على نحو محموم لاكتشاف رأي الولايات المتحدة فيهم، سارع الناس في كل بلد إلى معاينة الثبت أو الفهرس، أيُّ البلدان كان الأكثر تفضيلًا؟ أيها ورد ذكره أكثر من الجميع؟ كيف تم تصويرها؟ ما وضع الأصدقاء أو الأعداء؟ بات لكل بلد سجله، تحولت برقيات الويكيليكس إلى زاوية ثرثرة دولية، زاوية مثقلة بالكثير من التفاصيل المنكهة والمتبلة عن عادات قادة أجانب، يجب أن أقول إنني قرأتها باستمتاع، جنبًا إلى جنب مع باقي العالم.

تولت البرقيات فضح الارتباطات الشبكية التي كانت حكومتنا قد أوجدتها حول العالم عبر عقود من الزمن، والفجوة القائمة بين ما قالته الولايات المتحدة وما قمنا به فعلًا مدهشة الضيق، تمثل التباين الأكبر بين ما قاله قادة أجانب لشعوبهم على الملأ وما قالوه في خلواتهم، وسرعان ما اكتشفت أن عددًا من البرقيات التي سربتها ويكيليكس كانت تخصني شخصيًّا.

راعني- مثلًا - اكتشاف أن توجيهات لأعضاء في السلك الخارجي كانت قد صدرت في عام 2009م باسمي لجمع تفاصيل عن دبلوماسيين أجانب، بمن فيهم بعض موظفي الأمم المتحدة والدول الحليفة للولايات المتحدة، وقد تضمنت التفاصيل الأسماء المعتمدة في حسابات الإنترنت والإنترانت، والعناوين الإلكترونية، ورموز المواقع الشبكية المفيدة للتعرف، وأرقام بطاقات الاعتماد، وأرقام حسابات النشرات المتكررة، وبرامج العمل، وغيرها من المعلومات ذات العلاقة بسير الحيوات، في عملية عرفت باسم توجيه جمع المعلومات الإنترنتية الإنسانية.

أفاد الناطق باسم وزارة الخارجية فيليب كراولي بأنني لم أكن قد وضعت مسودة التوجيه، بأن اسم وزيرة الخارجية كان يضاف دوريًّا إلى أسفل

البرقيات الصادرة عن واشنطن، وبأنه لم يكن واضحًا ما إذا كنت قد اطلعت عليها فعلًا، كانت المادة الموجودة في البرقيات مكتوبة عمليًّا من قبل ألـ سي آي إيه قبل أن تعمم باسمي؛ لأن ألـ سي آي إيه لا تستطيع توجيه موظفي وزارة الخارجية مباشرة، والبرقيات المفضوحة كانت عائدة إلى عام 2008م، حين أُرسلت مذيلة بتوقيع كوندوليزا رايس إبان شغلها للمنصب.

صحيح أن ممارسة الولايات المتحدة ووزارة الخارجية لجمع المعلومات الاستخباراتية عن الأمم المتحدة أو عن دول صديقة لم تكن جديدة، غير أن أنماط المعلومات المطلوبة تجاوزت الممارسة السابقة أشواطًا، ولم تكن من النوعية التي يمكن أن توقع قيام الدبلوماسيين بجمعها من بيانات.

طوال أشهر من الزمن كنت، كلما علقت الإدارة على قضية ما، أجد نفسي عاكفة على مقارنتها بتصريحات كان جوليان آسانج قد أماط اللثام عنها، وبصرف النظر عن اللغو كله، ما من شيء ذي أهمية فعلية كُشف؛ كانت البرقيات من مستويات التصنيف الدنيا، ولم تكن أي منها من نوع (سري جدًّا)، لم يكن ثمة أي تلميحات إلى انقلابات رهن التدبير أو إلى قيام بلدان مختلفة بمراكمة أسلحة سرية لم يسمع أحد بمثلها. تابعت اتصالاتي الهاتفية حول ويكيليكس حتى الربيع التالي الذي جاء بحزمة جديدة من المشكلات.

زعيم ديني وكاتب أمريكي يدعى توماس مونسون كتب يقول- اسمحي لي أن أقرأ ما يأتي فقط-: «مبادئ العيش العظيم تتضمن مواجهة الصعوبات بشجاعة، مواجهة خيبة الأمل بالفرح، ومواجهة المحن بالتواضع».

أنا عاكفة على تطبيق نصيحتك أيها السيد مونسون، كَوْني وزيرة للخارجية أتاح لي وفرة من الفرص للممارسة.